

الفصل الرابع عشر  
**العوامل التي تشجع  
العمل الجماعي**

obeikandi.com

## الكراهية

### 65

الكراهية هي أكثر العوامل الموحدة شمولاً ووضوحاً. تجتذب الكراهية الشخص من نفسه، وتسيهه ما حوله، يومه ومستقبله، وتحرره من الشعور بالغيرة والرغبة في الإنجاز. وهكذا يصبح الشخص جزءاً لا هوية له يتحرق بالرغبة إلى الالتحام بالأجزاء التي تشبهه؛ ليكونوا جمهوراً شديد الاشتغال<sup>(\*)</sup> ويرى هاين أن ما لا يمكن تحقيقه بالحب على الطريقة المسيحية يمكن تحقيقه بالكراهية الجماعية<sup>(1)</sup>.

تستطيع الحركة الجماهيرية أن تبدأ وتنتشر دون أن تؤمن بالله، ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك دون الإيمان بالشیطان. ويمكن، عادة، أن نقيس قوة الحركة الجماهيرية بمدى نجاحها في إيجاد شيطانها وتجسيده، عندما سُئل هتلر

---

(\*) يقول عبد الله ثابت: «... عدت من هذه الرحلة وأكثر نقطة في الكون بغضاً إلى قلبي بيت أهلي المليء بالمعاصي والكفريات، ولتعود الخلافات والمناجزات بيني وبينهم من جديد، ولعظيم ما بي من الإقبال على هؤلاء والإدبار عن أهلي، حدثت... المسؤول عني عما أعيشه. فأمرني بترك البيت مجدداً، والنوم بالمساجد، وسيعطيني ما أحتاجه من المال، فامتثلت لأمره وغادرت بيت أهلي!». الإرهابي 20، مرجع سابق، ص 95.

(1) Heinrich Heine, Religion And Philosophy In Germany (London: Trubner & Company, 1882), p. 234.

عمّا إذا كان من الضروري إبادة اليهود قال: (كلا.. لوزال اليهود لكان علينا أن نخترعهم... من الضروري أن يكون هناك عدو ملموس لا مجرد عدو مفترض)<sup>(1)</sup>. ويروي أف. إي. فويجت قصة بعثة يابانية وصلت برلين سنة 1923م لتدرس الحركة النازية. سأل فويجت أحد أعضاء هذه البعثة عن رأيه في هذه الحركة، فكان جوابه: (إنها رائعة. أتمنى أن توجد حركة مشابهة في اليابان، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك؛ لأنه لا يوجد لدينا يهود)<sup>(2)</sup>.

إن براعة الشخص الذي يعرف كيف يبدأ حركة جماهيرية ويطلقها، أو كيف يبقيها، تتجلى في معرفة كيف يختار العدو الملائم بقدر ما تتجلى في قدرته على اختيار العقيدة الملائمة ووضع برامج لتنفيذها. لم يصبر المنظرون في الكرملين حتى تهدأ مدافع الحرب العالمية الثانية قبل أن يختاروا الغرب الديمقراطي، والولايات المتحدة على وجه الخصوص، عدواً للشيوعية. ومن المشكوك فيه أن أي مبادرات سلمية أو تنازلات كانت ستخفف من حدة الهجوم العنيف الذي أخذ ينصب على الغرب من الكرملين.

(1) Hermany Rauschnig, Hitler Speaks, (New York: G. p. putnam's sons, 1940), p. 234.

(2) Fritz August Vol 6t, unto caesar (NEW York: G. P. Putnams sons, 1938), p. 301.

ولعلّ أفذح الأخطاء التي ارتكبتها تشانج كاي شيك كان فشلته في أن يجد العدو الجديد الملائم بعد أن اختفى جيش الاحتلال الياباني من المسرح في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان الجنرال شديد الطموح، ولكنه كان يفتقر إلى الذكاء الذي يوضّح له أن ما أبداه الصينيون من حماسة وترابط واستعداد للتضحية بالنفس لا ترجع إلى شخصه هو، بل إلى وجود الشيطان الياباني المحتل.

## 66

تستطيع الكراهية الجماعية أن توحد العناصر المتنافرة. بل إن هذه الكراهية يمكن أن توجد رابطاً مشتركاً مع عدو على نحو ينخرقواه ويضعف مقاومته. لقد استطاع هتلر أن يستغل كراهية اليهود، لا لكي يوحد ألمانيا فحسب، بل ليضعف مقاومة دول تكره اليهود، مثل بولندا ورومانيا وهنغاريا، وحتى، في النهاية، فرنسا، كما استطاع أن يستخدم كراهية الشيوعية بالطريقة نفسها.

## 67

إن الرب ربّ واحد، والشيطان في الحركات الجماهيرية شيطان واحد. وهنا لنا أن نصغي إلى هتلر، أعظم خبير في طبيعة الشياطين، وهو يقول: إن عبقرية الزعيم تتجلى في التركيز على عدو واحد على نحو (يجعل حتى الخصوم المتنافرين داخل هذا العدو يظهران كما لو كانوا كتلة

واحدة<sup>(1)</sup>. وعندما اختار هتلر اليهود شيطاناً لحركته، فإنه عمد إلى ملء العالم كله تقريباً خارج ألمانيا باليهود أو عملائهم: (خلف إنجلترا يقف اليهود، وخلف فرنسا، وخلف الولايات المتحدة)<sup>(2)</sup> وستالين، بدوره، آمن بضرورة اختيار شيطان واحد. في الماضي كان هذا الشيطان الفاشية، ثم أصبح الرأسمالية الأمريكية.

يتمتع شيطان الحركة الجماهيرية بحضور دائم وقوي لا حدود له. وعندما سُئِلَ هتلر عما إذا كان يبالغ في الأهمية التي يضيفها على اليهود؟ أجاب: (لا! لا! لا! من المستحيل أن نبالغ في وصف القوى الهائلة للعدو اليهودي)<sup>(3)</sup>. وهكذا يصبح أي فشل داخل الحركة من فعل الشيطان، وأي نجاح تحقق فمن الشيطان ومخططاته.

ويبدو، ختاماً، أن الشيطان المثالي لا بد أن يكون أجنبياً. ومن هنا فإنه لا بد، لكي تكتمل الصورة من منح الشيطان المحلي أصولاً أجنبية. كان بوسع هتلر، بسهولة، أن يدفع اليهود الألمان بوصمة الأجانب. وقد ركزت الحركة الروسية الثورية

(1) Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Houghton Mifflin Company, 1943), p. 118.

(2) Quoted By Herman Rauschnig, Hitler speaks (New York: G. P. Putnam's Sons, 1940), p 234.

(3) Ibid.

على الأصول الأجنبية للاستقرابية الروسية<sup>(1)</sup>. وخلال الثورة الفرنسية اعتُبر الارستقراطيون (أحفاد الألمان المتوحشين، أما الفرنسيون العاديون فكانوا أحفاد الرومان والفرنسيين القدامى المتحضرين<sup>(2)</sup>) وفي أثناء الثورة الإنجليزية اعتبر الملكيون (من النورمان المنحدرين من الغزاة الأجانب)<sup>(3)</sup>.

## 68

نحن، عادة، لا نبحث عن حلفاء عندما نحبّ. حقيقة الأمر أننا نعدّ من يشاركوننا حُبنا منافسين ومعتدين، إلا أننا، دومًا، نبحث عن حلفاء عندما نكره.

من طبيعة الأمور أنه يجب أن نبحث عن آخرين يقفون معنا عندما تكون لدينا ظلامنة مشروعة تجعلنا نتوق إلى الانتقام من أولئك الذين ظلمونا. إلا أن الشيء المُحير هو أنه حتى عندما لا تتبع كراهيتنا من ظلامنة واضحة ولا تقوم على أساس، فإن الحاجة إلى حلفاء تصبح أشدّ إلحاحًا. إن الكراهية غير المنطقية هي التي تدفعنا إلى الانضمام إلى أولئك الذين يكرهون كما نكره، وهذا النوع من الكراهية هو الذي يتحول إلى عامل فاعل من عوامل الوحدة.

(1) Crane Brinton, the Anatomy of Revolution (New York: w. w. Norton & Company, Inc., 1938) p. 62.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

من أين تأتي هذه الكراهية غير المنطقية ولماذا تتحوّل إلى عامل توحيد؟ إنها تعبير عن محاولة يأسئة من جانبنا لإخفاء شعورنا بالنقص، أو بقلّة أهميتنا، أو بالذنب، أو بأيّ عيوب أخرى تتبع من داخلنا. يتحول احتقار النفس، هنا كراهية للآخرين، مع محاولة مستميتة لإخفاء هذا التحوّل. من الواضح أن أكثر الطرق فاعلية لتحقيق التحوّل هو أن نجد أكبر عدد ممكن من الأشخاص الذين يكرهون كما نكره. نحتاج هنا إلى قدر كبير من التوافق، وجهدنا لتحقيق هذا التوافق لا يتعلّق بنوع العقيدة التي نبشر بها، بل بالكراهية غير المنطقية التي نود أن تعمّ الجميع.

حتّى عندما تكون هناك ظلامّة مشروعة، فإن كراهيتنا لا تتبع من الظلم الذي مسنا بقدر ما تتبع من إحساسنا بالعجز والفشل والجبن، بعبارة أخرى من احتقارنا أنفسنا. عندما نشعر بالتفوق على أعدائنا فإننا نعاملهم باحتقار، وربما بشيء من الشفقة، ولكننا لا نكرههم. إن العلاقة بين الظلم والكراهية ليست واضحة ومباشرة، كما يتضح لنا من الحقيقة التي تثبت أن الكراهية التي يبعثها الظلم لا توجّه، دائماً، نحو الظالمين. كثيراً ما يحدث عندما يظلمنا شخص أن تتحوّل كراهيتنا إلى شخص آخر، أو جماعة أخرى لا علاقة لها بالأمر، من السهل استشارة الروس الذين يعانون القمع على يد بوليس ستالين

السري ضد (تجار الحروب الرأسمايين)؛ وقد انتقم الألمان الذين شعروا بالظلم الذي أوقعته بهم معاهدة فرساي بإبادة اليهود؛ وعمد الزولو الذين كان البوير يضطهدونهم في جنوب أفريقيا إلى ذبح الهندوس؛ ولجأ رعاى البيض الذين يحتقرهم الأرسقراطيون البيض في جنوب الولايات المتحدة إلى شنق السود<sup>(\*)</sup>. إن احتقار النفس يؤلّد (أكثر النزعات إجراماً؛ لأنه يجعل الشخص ينطوي على كراهية قاتلة للحقيقة التي تدينه هو، وتظهر عيوبه)<sup>(1)</sup>.

## 69

تتضح لنا الحقيقة التي تقول: إن الكراهية تتبع من احتقار النفس أكثر مما تتبع من الظلامة المشروعة عندما نتفحص العلاقة الحميمة بين الكراهية وتأنيب الضمير.

لا توجد طريقة أكثر فاعلية لكره شخص ما من إيقاع ظلم فادح بهذا الشخص. إن كون الآخرين يملكون ظلامة حقيقية تدعوهم إلى كرهنا يجعلنا نكرههم أكثر مما لو كنّا نملك ظلامة حقيقية ضدهم. ونحن لا نجعل الناس متواضعين وديعين نادمين على تصرفاتهم عندما نكشف لهم عن ذنوبهم؛

(\*) يمكننا أن نضيف هنا أن الإسرائيليين انتقموا من المحرقة الألمانية بصب جام غضبهم على الفلسطينيين (المترجم).

(1) Pascal, Pensees.

الأرجح أننا سنثير فيهم مشاعر الكبرياء والعدوانية. إن شعورنا أننا على حق مطلق لا يعدو أن يكون ضجة عالية نحاول أن نغرق فيها شعورنا المترسخ بالذنب الكامن في أعماقنا.

هناك شعور بتأنيب الضمير خلف كل الكلمات والأفعال المتعالية على الآخرين وخلف كل إعلان عن الرضا التام عن النفس.

## 70

نصبّ المزيد من الوقود على كراهيتنا عندما نظلم الذين نكرههم. وعلى النقيض، فنحن عندما نتعامل مع العدو بتسامح نضعف من كراهيتنا له.

## 71

أكثر الطرق فاعلية لخنق تأنيب الضمير إقتاع أنفسنا والآخرين أن الذين أخطأنا بحقهم هم، بالعقل، مخلوقات شريرة تستحق أقصى العقوبات، بما فيها الإبادة. ليس بوسعنا أن نشفق على الذين ظلمناهم، ولا أن نتصرف إزاءهم بحياء. لا بدّ أن نكرههم ونضطهدهم وإلا أبقينا الباب مفتوحاً أمام احتقار النفس.

## 72

يعاني أتباع الأديان السامية شعوراً بالذنب عندما تتسع الهوة بين تعاليم دينهم وواقعهم المليء بالمعاصي. وعندما يدخل

التطرف الصورة، فإن الشعور بالذنب يتحوّل إلى كراهية سافرة. وهكذا نجد أنه كلما ازداد التطرف عند أتباع مذهب ما، مهما كان المذهب نفسه سامياً، كلما نما لديهم الشعور بالكراهية.

## 73

إن كراهية عدو لديه جوانب طيبة أسهل من اختيار عدو سيئ تماماً. يصعب علينا أن نكره أولئك الذين نحتقرهم احتقاراً تاماً. خلال الحرب العالمية الثانية، كانت لدى اليابانيين ميزة على الغرب، إذ كان اليابانيون معجبين بالغربيين أكثر مما كان الغربيون معجبين بهم، ولهذا فقد كان بوسعهم كراهية الغربيين بحدة لم توجد عند الغربيين. وقدرة الأمريكيين على الكراهية أقل من قدرة غيرهم بسبب شعورهم بالتفوق على كل الأجانب. إن كراهية الأمريكي أمريكيّاً آخر (الرئيس هوفر<sup>(\*)</sup> أو الرئيس روزفلت<sup>(\*\*)</sup> مثلاً) أكثر عنفاً من

---

(\*) تولّى هيربرت هوفر (1874 - 1964م) رئاسة الولايات المتحدة بين سنتي 1929 - 1932م) وفي عهده حصل الانهيار الاقتصادي الشامل الذي سُمّي الكساد العظيم (المترجم).

(\*\*) تولّى فرانكلين روزفلت (1882 - 1945م) الرئاسة بعد هوفر وكان الرئيس الأمريكي الوحيد الذي انتخب ثلاث مرات، وتمكن من طريق سياسات مالية مبتكرة من القضاء على الكساد، وقاد الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية ويعدّ من أعظم الرؤساء الأمريكيين (المترجم).

أي كراهية يمكن أن يشعر بها نحو الأجانب. ومن اللافت للنظر أن الجنوب المتخلف في الولايات المتحدة يشعر بكرهية الأجانب بدرجة لا توجد في بقية البلاد. وعندما يبدأ الأمريكيون في كراهية الأجانب من أعماقهم، فسوف يكون هذا بمنزلة اعتراف بأنهم فقدوا إيمانهم بتفوق أسلوبهم في الحياة<sup>(\*)</sup>.

إن امتزاج الإعجاب بالكراهية يتضح في نزعتنا إلى تقليد من نكرهم. وهكذا نرى أن كل حركة جماهيرية تصوغ نفسها على نحو يناسب شيطانها المختار. مارست المسيحية في عنفوانها سلوكاً شبيهاً بسلوك المسيح الدجال. ومارس اليعاقبة في فرنسا كل شرور الطغيان الذين ثاروا عليه. وحققت روسيا السوفيتية أقصى ما يمكن أن يحققه الاحتكار الرأسمالي. وقد جعل هتلر من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) نموذجاً اتبعه وطبقه بكل تفاصيله<sup>(1)</sup>.

من المفزع حقاً أن نلاحظ كيف يعتمد المظلومون، دوماً، إلى صياغة أنفسهم على شكل ظالمهم. وما يقال من أن الشر يبقى حتى بعد أن يذهب فاعلوه صحيح، ومرجع ذلك أن الذين لديهم سبب لكراهية الشر يشكلون أنفسهم على شاكلته، ومن

(\*) هل بقي هذا الموقف الأمريكي من الأجانب بعد تفجيرات سبتمبر 2001؟

سؤال أتركه مفتوحاً! (الترجم).

(1) Herman Rauschnig, Hitler Speaks (New York: G. p. Putnam's sons, 1940) p. 235.

ثم يديمون وجوده. من الواضح، إذًا، أن تأثير التطرف يتجاوز بكثير حدود قدراته، من خلال الدعوة إلى الشر ونشره، يصور المتطرّف العالم كله على مثاله. لقد وضعت المسيحية المتطرفة بصماتها على العالم القديم عن طريق احتضان أتباع جدد وعن طريق دفع أعدائها الوثنيين إلى المزيد من القسوة. وقد فرض هتلر نفسه على الدنيا بنشر النازية وبإجبار الديمقراطيات على أن تصبح متطرفة وقاسية. وروسيا الشيوعية تصوغ كلاً من أعدائها وأصدقائها على مثالها.

وهكذا نرى أن الكراهية وسيلة سهلة لتحفيز جماعة ما للدفاع عن نفسها، إلا أنها، على المدى البعيد، ذات ثمن باهظ، ونحن ندفع هذا الثمن عندما نتخلّى عن القيم التي كنّا في البداية ندافع عنها، أو عن بعضها.

تمكن هتلر، الذي أدرك عنصر الإعجاب في الكراهية، من الوصول إلى استنتاج مذهل، قال: إنه من الضروري للحركة النازية أن تستثير كراهية أعدائها الحادّة، وأن تستحقها. هذه الكراهية، في رأيه، هي الدليل على تفوّق النازية: (إن أصدق دليل على قيمة النازية وصدق عقيدتها وقوة إرادتها هو العواء الذي تقابل به من جانب العدو)<sup>(1)</sup>.

(1) A dolph Hitler, op. cit, p. 351.

## 74

نحن، عندما نشعر بالظلم نتيجة معرفتنا بقلّة أهميتنا، لا نرى أنفسنا أحطّ من البعض وأرقى من البعض، بل نرى أنفسنا في الحضيض، وعندها نكره العالم كلّه ونصب جام غضبنا على الخليقة بأكملها.

إن المحبطين يشعرون بكثير من السعادة عندما يشهدون سقوط المحظوظين وفضائح المثاليين. يرى المحبطين في الانهيار الشامل وسيلة لإقامة الإخاء بين الجميع. الفوضى، كالثبور، مكان يضمن المساواة. إن شعور المحبطين المتحرق بضرورة إيجاد حياة جديدة ونظام جديد يغذيه الاعتقاد أنه لا بد من هدم القديم تماماً قبل البدء في بناء الجديد. أن تشوقهم إلى عهد جديد مليء بكراهية كل ما هو قائم، والتطلع إلى نهاية العالم.

## 75

بوسع الكراهية المتقدمة أن تمنح الحياة الفارغة معنى وهدفاً. ومن هنا، فإن الأشخاص الذين يعانون تقاهة حياتهم يعمدون إلى البحث عن معنى جديد، لا عن طريق اعتناق قضية مقدّسة فحسب، بل باحتضان ظلامات متطرفة. وتتيح الحركة الجماهيرية للمحبطين تحقيق الهدفين.

## 76

قال باسكال: (الناس، بطبيعتهم، يكرهون بعضهم بعضًا) وقال: (إن الحب والإحسان ليسا سوى صورة خارجية مزيفة تخفي في قاعها الكراهية)<sup>(1)</sup>. وسواء كان ما قاله باسكال صحيحًا أو لم يكن، فإنه يصعب علينا أن ننكر أن الكراهية عامل لا يغيب عن تصرفاتنا الفردية والجماعية. والكراهية نتيجة طبيعية لانهايار ولائنا وعواطفنا وآماننا. ومن الناحية الأخرى، فإنه بوسعنا أن نستغل الكراهية لصنع الولاء والحماس والأمل. قال مارتن لوتر: (عندما أشعر أن قلبي بدأ يبرد، وأعجز عن الصلاة بحرارة، أجد نفسي بتصور وجود أعدائي وقلة إيمانهم، أعني البابا وأعوانه.. عندها يمتلئ قلبي بالغضب الصادق والكراهية، وأستطيع أن أصلي بقوة ودفء: «تبارك اسمك، وجادت مملكتك، وتمت إرادتك! كلما ازداد غضبي زادت حماستي للصلاة»<sup>(2)</sup>).

## 77

إن الوحدة والتضحية بالنفس، في حد ذاتهما، حتى عندما يكونان نتيجة عوامل سامية يخلقان قدرة على الكراهية. حتى

(1) Pascle, op. cit.

(2) Luther, «Table Talk, Number 2387 a- b» Quoted In Frantz Funck-Brentano, Luther (London: Jonathan Cape Ltd. 1939), p. 319.

عندما يتحد الناس بقوة لنشر التسامح والسلام على الأرض، فإنه من المتوقع ألا يشعروا بأي تسامح إزاء أولئك الذين لا يشاركونهم معتقداتهم.

لا يمكن من دون غربة عن النفس أن تكون هناك تضحية بالنفس أو التحام كامل في المجموع وهذه الغربة تخلق، كما سبقت الإشارة، نزعة نحو المواقف المتطرفة، التي تشمل الكراهية الحادة. وهناك عوامل أخرى تساعد على نشوء الكراهية في محيط الوحدة والتضحية بالنفس. إن الاستعداد للتضحية بالذات يجعلنا قادرين على القسوة، خالية من الرحمة في مواجهة الآخرين. هناك اعتقاد شائع أن المؤمن الصادق، والمتدين بصفة خاصة، هو إنسان متواضع. إلا أن الحقيقة هي أن التخلص من النفس وإذلالها قد يقود إلى الغرور والكبرياء. ينزع المؤمن الصادق إلى اعتبار نفسه واحدًا من الصفوة المختارة، ملح الأرض، نور العالم العظيم المتستر تحت رداء التواضع، الشخص الذي سيرث الأرض ويرث ملكوت السماء<sup>(1)</sup>. أنه يرى أن الذين ليسوا من عقيدته من الأشرار، وكل من يرفض الاستماع إليه يجب أن يهلك<sup>(\*)</sup>.

(1) Matthew 5.

(\*) يصف عبد الله ثابت شعوره عندما أصبح واحدًا من الجماعة المتطرفة:

«يا إلهي... أيّ مجد هذا الذي أنا فيه، فمن كل حرمانني الذي مضى إلى

جندِّي في سبيل الله، يخطط ويعمل ويقدم ويؤخر لإقامة شريعة الله بدولة =

وهناك نقطة أخرى: عندما نهرب من أنفسنا ونصبح جزءاً من مجموع، فإننا لا نتخلى عن المزايا الشخصية فحسب، بل من كل مسؤولية شخصية. لا يستطيع أحد أن يتوقع حدود القسوة والعنف التي يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتحرر من مخاوفه وتردده وبقايا الطيبة في نفسه، أي من الأشياء التي تذهب مع ذهاب المسؤولية الشخصية. عندما نصهر استقلالنا في مجموع الحركة الجماعية، فإننا نعثر على حرية جديدة: حرية الكراهية والتخويف والكذب والتعذيب والقتل والخيانة دون خجل أو ندم. وهنا، بلا شك، نجد جزءاً من جاذبية الحركة الجماهيرية. نجد هنا (الحق في الانتهاك) الذي يزعم دستوفسكي أن له جاذبية لا تقاوم<sup>(1)</sup>. كان هتلر يحتقر القسوة التي يمارسها شخص بإرادته المستقلة: (أي) عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة سوف يكون مشوّباً بالتردد والشك. هذا العنف يفتقر إلى عنصر الاستقرار الذي لا يوجد إلا في الموقف الجماعي المتطرف<sup>(2)</sup>.

---

= جديدة. ها أنا بعد كل هذا من الطائفة المنصورة التي ينصرها الله من بين كل الطوائف، ومن الفرقة الناجية التي ستذهب كل الفرق عداها للنار، وأنا من الذين يجددون للأمة دينها، ويخرجونها من الظلمات إلى النور، ويحيونها بعد مواتها» الإرهابي 20، مرجع سابق ص 91.

(1) Fedor Dostoyevsky, the Possessed, Part Ic, Chap. 6.

(2) Adolph Hitler, op. cit, p 171.

وهكذا نرى أن الكراهية، كما تكون وسيلة للتوحيد تكون نتيجة له. يقول رينان: إننا لم نسمع بأمة رحيمة واحدة منذ بدء الخليقة<sup>(1)</sup> ويمكننا أن نضيف أننا لم نسمع بكنيسة رحيمة أو حزب ثوري رحيم. إن الكراهية والقسوة النابعين من الأنانية ليسا بشيء مقارنة بالسم والقسوة النابعين من التضحية بالذات.

عندما نرى سفك الدماء والرعب والدماء الناشء من حماسة نبيلة كحب الخالق، أو حب المسيح، أو حب الأمة، والتعاطف مع المظلومين، وهلم جرّاً، فإننا، عادة، ننسب هذه الفطائع إلى مسلك القيادة الأنانية المتعطشة إلى السلطة. حقيقة الأمر، إن الوحدة التي توجدتها هذه الحماسة، لا مكر القيادة، هي التي تحوّل النزعات النبيلة إلى واقع من الكراهية والعنف. إن تجريد الإنسان من فرديته، هو شرط أساسي لدمجه فى المجموع، وجعله قابلاً للتضحية بالنفس، هو إلى حد كبير، تجريد له من إنسانيته. إن قبو التعذيب مؤسسة جماعية!

#### التقليد

## 78

التقليد عامل أساسي من عوامل التوحيد. لا يمكن تصور مجموعة متلاحمة تماماً دون انتشار أنماط السلوك المتشابهة

(1) Ernest Renan, History of the People of Israel (Boston: Little, Brown, Company, 1888- 1846), vol 1. p. 130.

خلالها. إن الوحدة التي تفخر الحركات الجماهيرية بتحقيقها تعود إلى التقليد بقدر ما تعود إلى الطاعة. والطاعة نفسها تتجلى في تقليد النموذج، كما تتجلى في أتباع المبدأ.

على الرغم من أن القدرة على التقليد موجودة عند الناس جميعاً، إلا أنها قد تكون أقوى عند البعض من البعض الآخر. والسؤال المطروح هنا يتعلق بالمحيطين. هل هناك علاقة بين الإحباط والاستعداد للتقليد؟ هل يصبح التقليد، على نحو أو آخر، وسيلة للفرار من المشكلات التي تحاصر المحيطين؟

إن مشكلة المحيطين الأساسية شعورهم بعيوب أنفسهم وانعدام فاعليتها. وهدفهم الرئيس هو التخلص من هذه الأنفس المكروهة والمبدأ من جديد. يحاول المحيطون تحقيق هذه الرغبة إما بالعثور على هوية جديدة أو محاولة القضاء على تميزهم الفردي وإخفائه، وكلا هذين الهدفين يتحقق عن طريق التقليد.

بقدر ما يقل رضانا عن أنفسنا بقدر ما تزيد رغبتنا في أن نكون مثل الآخرين. ومن هنا فنحن ننزع إلى تقليد الذين يختلفون عنا أكثر من تقليد من يشابهوننا. كما أننا نقلد أولئك الذين نعجب بهم، لا أولئك الذين نحتقرهم. إن ما نراه من نزعة للتقليد لدى المظلومين (السود واليهود) هو أمر لافت للنظر.

إن محاولة التشويش على النفس وإخفائها لا تتحقق إلا عن طريق التقليد: أن نصبح مثل الآخرين بقدر ما يمكننا. إن الرغبة في الانتماء إلى الآخر هي، في الوقت نفسه، رغبة في الإفلات من النفس.

وأخيراً، نجد أن نقص ثقة المحبطين في أنفسهم يشجعهم على التقليد. بقدر ما نفقد الثقة في أحكامنا وفي مصيرنا بقدر ما يزداد استعدادنا لتقليد نماذج الآخرين.

## 79

إن رفض النفس في حد ذاته، حتى عندما لا يصاحبه بحث عن هوية جديدة يمكن أن يقود إلى المزيد من التقليد. تفقد النفس المرفوضة قدرتها على إثبات تميزها، ومن ثم، تزيل العقبة التي تحول بينها وبين التقليد. إن الموقف هنا لا يختلف عن موقف الأطفال، وعن موقف البالغين الذين لا يشعرون بأي تمايز فيما بينهم، حيث يعني غياب الفردية المتميزة ترك العقل مفتوحاً أمام التأثيرات القادمة من الخارج.

## 80

إن الشعور بالتفوق يقف حجر عثرة أمام التقليد. لو كان المهاجرون الذين قدموا إلى الولايات المتحدة قوماً متميزين، صفوة المجتمعات التي قدموا منها، لما كان بالإمكان أن

توجد ولايات متحدة واحدة، بل خليط من جماعات ثقافية وحضارية متنوعة. إلا أن كون معظم المهاجرين كانوا من قاع السلم الاجتماعي ومن أشد الطبقات فقراً، وكانوا منبوذين ومرفوضين، في أوطانهم القديمة، هو الذي أدى إلى امتزاج العناصر المتنافرة امتزاجاً تاماً سهلاً. لقد قدم المهاجرون إلى الوطن الجديد برغبة صادقة في طرح هوية العالم القديم والولادة من جديد في حياة جديدة، وكانوا مزوّدين، تلقائياً، بقدرة فائقة على التقليد وعلى تبني ما هو جديد.

لقد كان اختلاف الوطن الجديد عن أوطانهم الأصلية عنصر جذب لا تنافر: كانوا يتوقون إلى هوية جديدة وحياة جديدة، وكلما كان العالم الجديد مختلفاً كلما اتفق ذلك مع رغباتهم. وبالنسبة إلى غير الأنجلو/سكسونيين كان اختلاف اللغة عنصر جاذبية إضافية: تعلم لغة جديدة يؤكد الاعتقاد بأنهم يولدون من جديد.

## 81

كثيراً ما يكون التقليد طريقاً مختصراً إلى الحلّ. نحن نقلد عندما لا تكون لدينا الرغبة أو القدرة أو الوقت لتطوير حل جديد. ومن هنا فإن المستعجلين يقدمون على التقليد أكثر من أولئك الذين لا يوجد لديهم حافز على الاستعجال. وهكذا نجد أن التقليد عند المجموعة الأولى يقود إلى التماثل. وعندما

نكون بصدد صهر أفراد في مجموعة متلاحمة يصبح التقليد عنصراً مهماً في عملية الصهر.

## 82

إن التوحيد في حد ذاته، وسواء كان سببه الاقتناع أو القمع أو الاستسلام التلقائي، ينزع إلى زيادة القدرة على التقليد. إن المدني الذي ينخرط في الجهاز العسكري المترابط يصبح أكثر قدرة على التقليد، مما كان عليه يوم كان مدنياً، والشخص الذي يتم صهره في مجموعة متلاحمة يفقد ذاته المتميزة ويفقد معها القدرة على مقاومة التأثيرات الخارجية. ولعل ما نلاحظه عند الشعوب البدائية من نزعة إلى التقليد يرجع إلى كونهم أعضاء في قبائل وعشائر مترابطة أكثر من كونهم في مرحلة بدائية من التطور.

إن قدرة الجماعة المتلاحمة على التقليد تشكل في الحركات الجماهيرية عنصر قوة وعنصر خطر في الوقت نفسه. من السهل صهر أتباع الحركة في المجموع، إلا أنهم يبقون عرضة للتأثيرات الخارجية، وهذا ما يخلق الانطباع بأن المجموعة المتلاحمة تماماً يسهل إغراؤها وإفسادها. ومن هنا نجد أن أدبيات الحركات الجماهيرية مليئة بالتحذير من تقليد النماذج الأجنبية (واتباع مناهجها الشيطانية. تعد هذه الأدبيات تقليد الأجنبي خيانة وردة). (كل من يقلد الأجنبي

يهين الأمة، شأنه شأن الجاسوس الذي يسمح بدخول العدو من باب جانبي)<sup>(1)</sup>. تتبع كل الوسائل لمنع أي اتصال بين الأتباع المؤمنين وبين غير المؤمنين. بل إن بعض الحركات الجماهيرية تصل إلى حد أخذ أتباعها إلى الصحراء؛ حتى يتاح للأنماط الجديدة أن تستقر في نفوسهم من دون أي مؤثرات خارجية.

إن احتقار العالم الخارجي هو الوسيلة الأكثر فاعلية لمنع أثر التقليد المخل بوحدة الجماعة. إلا أن الحركة الجماهيرية النشطة تصنع الكراهية في منزلة تفوق الاحتقار السلبي، والكراهية لا تحول دون التقليد و كثيراً ما تحفز عليه. أما في الجماعات الصغيرة المحاطة ببحر من الأجانب والتي تصر على الاحتفاظ بتمييزتها، فيمكن للاحتقار أن يعزلها عن محيطها وأن يبقيها منطوية على ذاتها لا ترحب بأتباع جدد.

إن النزعة إلى التقليد تمنح الجماعة المتحدة المتماسكة الكثير من المرونة والقدرة على التأقلم. تستطيع هذه الجماعة تبني التجديدات وتغيير التوجهات بسهولة متناهية. إن التطور السريع الذي شهدته كل من اليابان وتركيا المتحدتين يختلف تمامًا عما شهدته الصين من تطور بطيء وتأقلم مؤلم مع العادات الجديدة. إن روسيا السوفيتية المتحدة تمامًا تستطيع

---

(1) Julien Benda, *The Treason of Intellectuals*, (New York: William Morrow Company, 1928), p. 39.

أن تتبنى أساليب وطرقاً جديدة على نحو لم يكن متاحاً لروسيا القيصرية التي لم تصل إلى الدرجة نفسها من التماسك. كما أنه من الواضح أن الشعب البدائي الذي يتمتع بتنظيم جماعي متماسك يستطيع أن يتطور بسهولة، لا تتاح للشعب البدائي الذي لا يملك سوى تنظيمات قبلية ومجتمعية منهارة.

### الإقناع والقمع

## 83

ينزع الناس - في أيامنا هذه - إلى المبالغة في تأثير الإقناع بوصفه وسيلة لنقل الأفكار وصياغة السلوك، ويعدون الدعاية سلاحاً لا مثيل لفاعليته. وهم، من المنطلق نفسه، يعززون النجاحات المذهلة التي حققتها الحركات الجماهيرية في هذا العصر إلى الدعاية، بحيث أصبحوا يخافون من الكلمة خوفهم من السيف.

إلا أن الواقع يثبت أن كثيراً من النجاحات الرائعة التي تتسبب إلى تأثير الدعاية لا علاقة لها بالدعاية. لو كان للدعاية هذه الفاعلية الخارقة التي تتسبب لها لكانت الأنظمة الشمولية في روسيا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ستبدو مقبولة إلى حد ما. كانت ستظهر متبجحة ومتعالية، ولكن من دون الوحشية المرعبة التي مارسها البوليس السري ومراكز الاعتقالات والإعدامات الجماعية. الحقيقة أن هذه الأنظمة كانت تعتمد على القمع أكثر من اعتمادها على الدعاية.

يبدو أن الدعاية، وحدها، لا تستطيع أن تشق طريقها إلى العقول التي ترفضها، ولا تستطيع أن تفرض على الناس مواقف جديدة كل الجدة؛ ولا تستطيع أن تبقيهم على المبادئ التي كفروا بها، تتغلغل الدعاية في العقول المفتوحة لها بالفعل، وبدلاً من أن تفرض آراء جديدة، فإنها تعمل على ترسيخ الآراء الموجودة في هذه العقول وتطويرها. إن الدعائي الموهوب هو الذي يفجر العواطف والمشاعر التي كانت تختمر في عقول السامعين، وهو بهذا يحاكي أعمق أحساسيسهم الداخلية. وهذا الدعائي لا يحاول فرض آراء، ولكنه يسعى إلى إقناع الناس بصدق الأشياء التي كانوا يعرفونها من قبل.

إن الدعاية، وحدها، لا تتجح، عادة، إلا مع المحبطين. يجد هؤلاء أنفسهم محاصرين بالمخاوف والأوهام التي تحول بين مداركهم وبين العالم الخارجي، إنهم لا يستطيعون أن يروا إلا ما كانوا يتخيلونه، ولهذا تجيء كلمات الدعائي الذي يدغدغ مشاعرهم، وكأنها موسيقى تتبع من أنفسهم الخفية. والمحبطون، في الحقيقة، أقدر على التعرف على مشاعرهم في الشعارات الضخمة والكلمات الكبيرة الجوفاء منهم على تبينها في الكلمات المترنة المنطقية.

إن الدعاية، وحدها، مهما كانت مؤثرة لا تستطيع أن تبقي على إيمان الناس بعد أن فقدوه. ومن هنا تعمد الحركات

الجماهيرية عندما ترى أن الناس لم يعودوا مؤمنين بها، كما كانوا من قبل إلى إجبارهم باستخدام القوة<sup>(1)</sup>.

إن الكلمات أداة لا بدّ منها لتهيئة الأرض للحركة الجماهيرية. إلا أنه عندما تبدأ الحركة الجماهيرية نشاطها تفقد الكلمات الكثير من فاعليتها القديمة، على الرغم من أنها تظل أداة نافعة للحركة. عبر زلة لسان اعترف الدكتور جوبلز خبير الدعاية الشهير أنه (لا بدّ من وجود سيف حاد يقف خلف الدعاية إذا أريد لها أن تكون فاعلة حقاً)<sup>(2)</sup>. بل إن جوبلز يكاد يكون اعتذارياً عندما يقول: (لا يمكن أن ننكر أن بوسعنا أن نحقق عن طريق الدعاية المؤثرة، ما لا نستطيع تحقيقه في غيابها)<sup>(3)</sup>.

## 84

عكس ما قد يتوقعه المرء، تصبح الدعاية هيستيرية، ولا عقلانية عندما تعمل جنباً إلى جنب مع القمع، بخلاف الوضع عندما تعتمد الدعاية على فاعليتها وحدها.

كل من الذين اعتنقوا المبدأ الجديد باقتناع، والذين اعتنقوه قسراً، يحتاجون إلى إيمان قاطع أن هذا المبدأ وحده هو المبدأ الصحيح. من دون هذا الإيمان القاطع يتحوّل

(1) Nicclo Mach, Avelli, The Prince, chap. vi.

(2) The Goebbels Diaries, (Garden city: Double day & company. Inc, 1948), p. 460.

(3) Ibid. p. 298.

الإرهابي في نظر نفسه إلى مجرم، كما أن الأتباع الذين تمَّ ضمهم قسراً سيعدّون أرواحهم مجرد بضائع معروضة للبيع. وهكذا نجد أن الدعاية تساعدنا على تبرير ما نفعله، لا على إقناع الآخرين، وكلما ازداد شعورنا بالذنب ازدادت حاجتنا إلى الدعاية.

## 85

إن المقولة التي تذهب إلى أن العنف يولّد التطرف صحيحة، كأختها التي تقول: إن التطرف يولّد العنف. كثيراً ما يكون من المتعذر أن نعرف من الذي سبق الآخر، العنف أو التطرف. كل من الذين يمارسون العنف، والذين يخضعون له، ينزعون إلى تطوير عقليات متطرفة. يقول فيرريرو عن إرهابي الثورة الفرنسية: (كلما سفكوا المزيد من الدماء ازدادت حاجتهم إلى الإيمان بمبادئهم باعتبارها الحقيقة المطلقة. هذا الإيمان هو، وحده، القادر على أن يغفر لهم ما ارتكبوه من جرائم، وعلى أن يبقي طاقتهم متأججة. إنهم لم يسفكوا كل تلك الدماء؛ لأنهم آمنوا بسيادة الشعب باعتبارها حقيقة دينية مطلقة، بل على النقيض، اعتبروا إيمانهم بها حقيقة مطلقة بدافع من الخوف الذي دفعهم إلى سفك الدماء الغزيرة)<sup>(1)</sup>.

(1) Guglielmo Ferrero, Principles of Power (New York: G. P. Putnam's sons, 1942), p. 100.

إن ممارسة العنف تخدم المؤمن الصادق، لأن الرعب يخيف الخصوم ويسحقهم فحسب، بل لأنه يقوّي إيمانه ويجعله أكثر حدّة. إن عمليات شنق السود التي كان يقوم بها بعض البيض في جنوب الولايات المتحدة لم تكن ترعب السود فحسب، بل كانت تغذي إيمان العنصريين البيض وتقويّه.

يمكن للقمع أن يولّد التطرف، حتى في حالة المقموعين، هناك ما يشير إلى أن الشخص الذي أجبر بالعنف على اعتناق مبدأ ما كثيراً ما يصبح متطرفاً في إيمانه بالمبدأ الجديد، شأنه شأن الشخص الذي آمن بالمبدأ عن اقتناع، وربما أكثر منه. إن المقولة التي تذهب إلى «أن الذي استجاب برغم إرادته سيبقى على آرائه القديمة لا تصح في كل الأحوال». في الفتوح الإسلامية أبدى المسلمون الجدد من الحماسة للدين الجديد ما لم يبده المسلمون القدامى. ويرى رينان أن الإسلام أصبح بفضل المسلمين الجدد «ديناً يقوى باستمرار»<sup>(1)</sup>. إن العقيدة المتطرفة في كل الحركات تأتي في مرحلة لاحقة على بدء الحركة، عندما تصبح الحركة قويّة تستطيع فرض مبادئها بالإقناع والقسر معاً.

هكذا نجد أن القمع، عندما يكون عنيفاً ومستمرّاً، يملك قدرة لا تجارى على الإقناع، لا في التعامل مع البسطاء والسذج

(1) Ernest Renan, The Poetry of the celtic Races, (London: w. scott, ltd, 1896), Essay on Islamisim, p. 97.

وحدهم، بل في التعامل مع أولئك الذين يفخرون بنزاهة مواقفهم الفكرية وصلابتها. عندما يصدر الكرملين قراراً تعسفياً يجبر العلماء والكتاب والفنانين على الاعتراف بأنهم تخلوا عن مبادئهم وارتكبوا أخطاءً، فمن غير المستبعد أن تمثل اعترافاتهم تحولاً حقيقياً في مواقفهم، لا مجرد مظاهر لفظية، إننا نحتاج إلى عقيدة متطرفة لتبرير جبننا.

## 86

لا تكاد توجد حالة واحدة لحركة جماهيرية ذات أبعاد واسعة وتنظيم دائم تمكنت من تحقيق ما حقته عن طريق الإقناع وحده. يلاحظ البروفسور، ك. س. لا توريت، وهو مؤرخ بميول مسيحية واضحة، أنه (مهما كان التناقض بين روح المسيح والقوة المسلّحة، ومهما كان الاعتراف بالحقيقة مؤلماً، فإن التاريخ يقول لنا، ببساطة إن القوة المسلحة كثيراً ما كانت العامل الذي نشر روح المسيح ومحاها)<sup>(1)</sup>.

كان السيف الدنيوي هو المسؤول عن جعل المسيحية ديناً عالمياً. تمشى التبشير والغزو يداً بيداً، وكثيراً ما استخدم التبشير مبرراً للغزو. وفي الحالات التي فشلت فيها المسيحية

(1) Kenneth Scott Latourette, The Unquench Able light, (New York: Harper & Brothers, 1941), p. 33.

في الحصول على دعم دولة ما، أو الاحتفاظ بهذا الدعم، فإنها لم تستطع تحقيق وجود واسع أو دائم. (واجهت المسيحية في فارس ديانة وطنية تدعمها قوة التاج، ولهذا بقيت محصورة في أقلية صغيرة)<sup>(1)</sup> وفي الفتوح الإسلامية الأسطورية كان الفتح، نفسه، هو العامل الأساسي، أما الحصول على أتباع جدد للدين، فقد جاء في المرتبة الثانية: (إن أكثر عصور الإسلام ازدهاراً كانت أيام قوته السياسية، وفي هذه الأوقات استقبل الإسلام الكثير من المعتنقين الجدد من خارج دائرته)<sup>(2)</sup>. لم تستطع حركة الإصلاح البروتستانتية تحقيق أي تقدم، إلا عندما حظيت بدعم أمير حاكم أو سلطة محلية. قال ميلانشتون، أكثر مساعدي لوثر حكمة: (دون تدخل السلطة السياسية ماذا كان سيحدث لمبادئنا؟ كانت ستبقى مجرد مبادئ على الورق)<sup>(3)</sup> وعندما اصطدمت هذه الحركة بقوة الدول، كما حدث في فرنسا، غرقت في بحر من الدماء، ولم تنهض ثانية. وفي حالة الثورة الفرنسية كانت جيوش الثورة، لا

(1) Kenneth Scott Latourette, A History of the Expansion of Christianity (New York: Harper & Brothers 1937) vol 1, p. 164.

(2) Charles Reginald Haines, Islam, As A Missionary Religion (London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1889), p. 206.

(3) Quoted by Frantz Funck. Brentano, op. cit. p. 260.

أفكارها، هي التي تغلغت في أوروبا بأكملها<sup>(1)</sup>. لم تكن المسألة مسألة عدوى فكرية.. قال ديموريز عن الفرنسيين (كانوا يعلنون مبدأ الحرية المقدّس، كما لو كان القرآن، وهم يشهرون السيوف.<sup>(2)</sup> وخطر الشيوعية، في الوقت الحاضر، لا ينبع من قوة أفكارها، ولكن من كونها مدعومة بجيش من أقوى جيوش العالم.

يبدو أنه كلما كان أمام الحركة الجماهيرية خيار الإقناع والقمع، فإنها تنزع إلى اختيار القمع. إن الإقناع عملية صعبة ذات نتائج غير مضمونة. قال القديس الأسباني دومينيك<sup>(3)</sup> لجماعة متهمّة بالهرطقة: (عبر سنين طويلة رجوتكم بلا جدوى، وكنت أعظكم برفق، وأنصحكم بالصلاة والبكاء). إلا أن المثل الأسباني يقول: «عندما لا تنفع الدعوة الرقيقة، فإن الضربات قد تنفع. سوف أثير عليكم الأمراء والحكام... وستنفع الضربات، حيث فشلت الدعوة الرقيقة»<sup>(4)</sup>.

(1) Gugilelmo Ferrero, *The Gamble*, (Toronto: Oxford University Press, 1939), p. 297.

(2) Crane Brinton, *A Decade of Revolution* (New York: Harper and Brothers, 1934), p. 168.

(3) عاش القديس دومينيك بين سنتي (1170 - 1221م) وإليه ينسب المذهب الكاثوليكي المسمّى باسمه والذي يركّز على أهمية التبشير والتعليم. (المتّرجم).

(4) «Dominic» *Encyclopaedia Britannica*.

## 87

إن المقولة التي تذهب إلى أنه لا يمكن إيقاف حركة جماهيرية بالقوة لا تصحّ على علّاتها. تستطيع القوة أن توقف أشد الحركات حيوية وتسحقها إلا أنها لكي تتمكن من فعل ذلك، فلا بدّ من وجود العقيدة عاملاً لا يمكن الاستغناء عنه. إن استخدام القوة استخداماً عنيفاً مطرداً لا يمكن أن ينبع إلا من عقيدة متطرفة. (كل عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة سيتصف بالتردد وفقدان الهدف. إنه يفتقر إلى الثبات الذي لا يمكن أن يستند إلا على مبدأ متطرف<sup>(1)</sup>). ولا يمكن للإرهاب النابع من قسوة فردية أن يذهب إلى المدى المطلوب أو يبقى المدة المطلوبة. مثل هذا العنف الفردي متقلب يتحكم فيه المزاج ويعتريه التردد. (بمجرّد أن تتردد القوة أو تقترب من بفترات من التسامح، فإن المبدأ المطلوب طمسه سوف يعود المرة بعد المرة، بل إنه سيستمد المزيد من القوة نتيجة ما عاناه من اضطهاد<sup>(2)</sup>).  
الرعب المقدّس لا يعرف الحدود، ولا يعرف التردد.

وهكذا يبدو أنه لا بدّ لنا من إيمان متحمس، لا لكي نستطيع مقاومة القمع فحسب، بل لكي نستطيع ممارسته بفاعلية.

(1) Adolph Hitler, op. cit, p. 171.

(2)Ibid p. 171.

## من أين تأتي الرغبة في التبشير؟

### 88

إن قوة العقيدة ليست العامل الرئيس الذي يدفع حركة جماهيرية إلى نشر عقيدتها في جهات الأرض الأربع: (إن الأديان التي يؤمن بها أتباعها بحماسة كثيراً ما تكتفي بازدراء العقائد الأخرى واحتقار أتباعها) <sup>(1)</sup> كما أن التبشير ليس تعبيراً عن قوة هائلة لا بد، كما قال بيكون (أن تفيض وتغمر كل شيء، مثل طوفان عظيم) <sup>(2)</sup>.

يبدو أن الرغبة في التبشير تجيء من شك عميق، من شعور بعدم الثقة في صميم الحركة. ويمكن النظر إلى التبشير بوصفه محاولة عاطفية للبحث عن شيء لم نجده نحن بعد قبل أن يكون محاولة لإعطاء العالم شيئاً نملكه بالفعل: إنه بحث عن إثبات نهائي قاطع أن الحقيقة المطلقة التي نؤمن بها هي، بالفعل، الحقيقة المطلقة الوحيدة. والتبشيري المتطرف يغذي إيمانه هو عن طريق إقتناع الآخرين باعتناق عقيدته. والمذهب الذي تسهل مهاجمة شرعيته سوف يكون أكثر المذاهب حرصاً

(1) Jacob Burckhardt, Force and Freedom, (New York: Pantheon Books, 1943), p. 129.

(2) Francis Bacon, «of Vicissitude of thing, Bacons' Essays, Everyman's Library Edition (New York: E. p. Dutton & Company, 1932), p. 171.

على التبشير. من المشكوك فيه أن حركة لا توجد في عقيدتها أشياء خيالية وغير عقلانية يمكن أن يملكها ذلك الشعور الطاغي بأنه (لا بد من أن نضم إلينا العالم، أو ندمر العالم). كما أنه يمكن القول: إن تلك الحركات التي تعاني بشدة من الهوة بين العقيدة والممارسة، وبعبارة أخرى، الحركات التي يتفشى فيها الشعور بالذنب ستكون الأكثر حماسة لفرض عقيدتها على الآخرين. كلما ظهر عجز الشيوعية عن تحقيق منجزات في روسيا، وكلما اضطر قاداتها إلى تغيير مبادئها الأصلية وتعديلها، كلما زاد هجوم هؤلاء القادة على العالم غير الشيوعي حدة ووقاحة. أصبح مالكو الرقيق في جنوب الولايات المتحدة أكثر إصراراً على نشر أسلوب حياتهم عندما أصبح من الواضح أن هذا الأسلوب لم يعد مقبولاً في الحياة العصرية. وعمداً يفرط الاقتصاد الحر في التبشير بقضيته المقدسة فإن هذا دليل على أن مزاياه وفاعليته لم تعد ظاهرة لا تحتاج إلى بيان<sup>(1)</sup>.

يمكن النظر إلى النزعة المتحرقة إلى التبشير والنزعة المتحرقة إلى السيطرة على العالم بوصفهما أعراضاً لمشكلة خطيرة في صميم الحركة. ولعلّه من الصحيح أن المبشرين، والغزاة باسم الدين، شأنهم شأن اللاجئيين، يذهبون إلى

(1) لعل هذا بدأ يحدث مؤخرًا في العالم الرأسمالي (المرجم).

الشيطان البعيدة؛ هرباً من واقع لا يمكن تحمله في الوطن. والفئات الثلاث، في حقيقة الأمر، كثيراً ما تتلاقى، وتختلط، وتتبادل الأدوار فيما بينها.

### القيادة

## 89

برغم الأهمية البالغة التي نعلّقها على دور القيادة في صعود الحركة الجماهيرية، فإنّه من المؤكد أن القائد لا يستطيع خلق الظروف التي تجعل صعود حركة جماهيرية أمراً ممكناً، أي لا يستطيع صنع الحركة من فراغ، لا بد أن يكون هناك توقُّع إلى الانقياد والطاعة وشعور عميق بعدم الرضا عن الأوضاع الراهنة قبل أن تظهر الحركة وتظهر قياداتها. وفي غياب الظروف المواتية فإن القائد، مهما كان موهوباً ومهما كانت قضيته المقدّسة جذابة، فسيبقى بلا أتباع. كانت الحرب العالمية الأولى، وما تلاها، المسؤولّة عن تهيئة التربة التي سمحت بظهور الحركات البلشفية والفاشية والنازية. لو أن تلك الحرب لم تقم، أو لو تأخرت عقداً أو عقدين، لكان مصير لينين وموسوليني وهتلر لا يختلف عن مصير الكثير من المتأمرين في القرن التاسع عشر، وهم الذين فشلوا في تحويل الاضطرابات والأزمات التي واجهوها إلى حركات جماهيرية شاملة. كان هناك شيء غائب عن الصورة: لم تكن الجماهير

الأوروبية، حتى أحداث الحرب العالمية الأولى المفصلية، قد فقدت الثقة تماماً في الحاضر، ولم تكن مستعدة للتضحية به في سبيل حياة جديدة وعالم جديد. حتى القادة الوطنيون الذين عملوا بفاعلية تفوق فاعلية الثوار لم يتمكنوا من جعل القومية قضية مقدّسة، كما حدث فيما بعد. ظهرت القومية المتطرفة والثورية المتطرفة في الوقت نفسه.

وفي بريطانيا، بدورها، كان على القائد أن ينتظر حتى تتضح الظروف المواتية؛ لكي يستطيع القيام بدوره. خلال الثلاثينيات كان القائد المحتمل، تشرشل، معروفاً ومشهوراً يصل صوته إلى الناس، يوماً بعد يوم. إلا أن الرغبة في اتباع القائد لم تكن موجودة. كان لا بد من الانتظار إلى أن جاءت الأزمة وهزت البلاد بعنف وأقنعت الناس بضرورة اتباع القائد.

هناك مدة من الانتظار، والانتظار الطويل أحياناً، في الكواليس قبل ظهور القادة الكبار على المسرح في لحظة تبدو لنا اللحظة المفصلية في تاريخ الحركة. إن الأحداث والمصادفات وسلوك الآخرين هي العوامل التي تهيئ المسرح قبل أن يظهر القادة ويمارسوا أدوارهم. (إن البطل الرئيس في نهاية يوم حافل يبدو كما لو كان المصادفة الأخيرة في يوم مليء بالمصادفات)<sup>(1)</sup>.

(1) John Morley, Notes on Politics and History (New York: Macmillan Company, 1914), pp. 69- 70.

90

عندما يصبح المسرح جاهزاً فإن ظهور القائد الموهوب يصبح أمراً محتوماً. من دون هذا القائد لا يمكن أن تولد الحركة الجماهيرية. إن أكثر الظروف نضجاً لا تنتج، بالضرورة، حركة جماهيرية، كما أن الانتخابات والتشريعات والمكاتب الإدارية لا تستطيع أن تفرّج الحركة. كان لينين المسؤول عن تحويل مجرى الأحداث إلى قناة الثورة البلشفية. لو أنه مات في سويسرا، حيث كان يعيش، أو في طريقه إلى روسيا سنة 1917م، لكان في حكم المؤكد أن ينضم قادة البلاشفة إلى حكومة ائتلافية، وكانت النتيجة جمهورية ليبرالية تتحكم فيها الطبقة البورجوازية. وفي حالة هتلر وموسوليني، تشير الحقائق، على نحو قاطع، أنه من دونهما لم يكن من الممكن قيام النازية والفاشية.

وتثبت التطورات في بريطانيا في الوقت الحاضر (1951م) ضرورة وجود قائد موهوب لبلورة حركة جماهيرية. كان بوسع قائد كهذا، تشرشل بنزعات اشتراكية، على رأس حكومة العمال أن ينفذ برامج التأميم الجذرية في جو حركة جماهيرية مندفعة، بدلاً من تنفيذها على نحو مملّ بعيد عن الإثارة. كان بوسعه تصوير العامل البريطاني في دور المنتج البطولي الرائد في عملية التصنيع، وكان بوسعه أن يشرح للبريطانيين أن

دورهم الرئيس هو أن يظهروا للعالم كله، ولا أمريكا وروسيا بالذات، ما يمكن لأمة متحضرة أن تحققه عندما تتحرر مما يواكب الرأسمالية من ارتباك وهدر وجشع، وما يواكب الشيوعية من بيروقراطية وجهل وتخلف. كان بوسع أن يبث في دماء الشعب البريطاني الاعتداد والأمل اللذين كانا عونيه الأكبر في أحلك ساعات الحرب العالمية الثانية.

يتطلب الأمر إرادة حديدية ورؤية لدى قائد استثنائي يمكن تحويل الآراء والاتجاهات السائدة إلى مجرى الحركة الجماهيرية. يجسد هذا القائد صدق المبدأ وتحدي القوة وعظمتها. ويعبر عن النعمة المخزونة في صدور المحيطين ويجد لها التبريرات. ويشعل رؤى غد مشرق رائع؛ ليبرر التضحيات في الحاضر العابر. ويبني مسارح الخيال التي لا بد منها لضمان التضحية بالذات والعمل الجماعي. ويبني صورة جذابة للمجموع تساعد المحيطين على الانفلات من وجود فردي تافه بلا معنى.

ما هي المواهب اللازمة للقيام بهذا الدور القيادي؟ إن الذكاء الخارق ونبيل الشخصية والابتكار لا تبدو أموراً ضرورية، بل قد لا تكون أموراً مرغوباً فيها. الصفات التي تبدو ضرورية هي الشجاعة والاستمتاع بالتحدي؛ الإرادة الحديدية؛ الإيمان الذي لا يقبل نقاشاً أنه وحده يمتلك الحقيقة المطلقة؛ الإيمان بمصيره وسعد طالعه؛ القدرة على الكراهية المتقدة؛

احتقار الحاضر، القدرة على تحليل الطبيعة البشرية؛ الودع بالرموز (المشاهد الرائعة المثيرة)؛ الثقة المطلقة التي تصل حد الاستخفاف بالعدالة والمنطق؛ معرفة شوق الجموع إلى الالتحام بكيان جماعي والذوبان فيه؛ القدرة على كسب ولاء مجموعة من المساعدين الأكفاء والاحتفاظ به - وهذه الخصلة الأخيرة واحدة من أهم الصفات وأندرهما. إن قوة القائد الأسطورية لا تتجلى في تحكمه في الجماهير الغفيرة بقدر ما تظهر في قدرته على السيطرة التامة على مجموعة صغيرة من الرجال الأكفاء. يجب أن يكون هؤلاء الرجال شجعاناً، معتدين بأنفسهم، أذكىء قادرين على تحقيق منجزات كبرى، ومع ذلك كله يجب أن يخضعوا كلية لإرادة القائد، وأن يستمدوا الإلهام منه وحده، وأن يعدّوا هذا الخضوع غاية المجد.

وباستعراض الصفات السابقة نجد أنها ليست على مستوى واحد من الأهمية. أهم الصفات المطلوبة في قائد الحركة الجماهيرية الشجاعة والإيمان المطلق بقضيته المقدّسة، وإدراكه أهمية قيام كيان جماعي متلاحم، وأهم من ذلك القدرة على خلق ولاء أعمى عند مجموعة من المساعدين الفاعلين. لقد فشل تروتسكي<sup>(1)</sup> نتيجة عجزه عن إيجاد

(1) كان تروتسكي (1879 - 1940م) من أبرز قادة الثورة البلشفية وكان رفيقاً قريباً من لينين وقد نفاه ستالين، ثم قام باغتياله في المكسيك (المترجم).

مساعدين أكفاء يدينون له بالولاء المطلق. لم يكن قادراً على اجتذاب الحب ولا قادراً على الاحتفاظ به<sup>(1)</sup>. كما أنه كان يعاني من مشكلة أخرى هي احترامه الكامل للفرد، والفرد المبدع بالذات. لم يكن يرى أن الوجود الفردي المستقل يرقى إلى الخطيئة، ولم يكن يعي أهمية التحام الفرد بالمجموع لنجاح الحركة الجماهيرية. وفي الصين تمكن سن يات سن<sup>(2)</sup> (من أن يجذب عدداً من الأعوان القادرين، مستثيراً خيالهم برواه عن الصين الجديدة وموجداً لديهم روح الولاء والتضحية بالذات)<sup>(3)</sup>. أمّا تشانج كي شيك فيبدو، بخلافه، مفتقراً إلى كافة الصفات الضرورية في قائد الحركة الجماهيرية. من الناحية الأخرى، يبدو ديجول<sup>(4)</sup> قائداً يتوقع منه الكثير. أما قادة الأحزاب الشيوعية خارج روسيا فهم عاجزون، مع

(1) Angelica Balabanoff, My Life As Rebel, (New York: Harber, Brothers, 1988), p. 152.

(2) يعدّ سن يات سن (-1866 1925) مؤسس الصين الحديثة، وقد أنشأ الحزب الوطني، وقضى على النظام الأمبراطوري، وأسس جمهورية سنة 1911م، وظل حتى وفاته الحاكم الفعلي للصين (المترجم).

(3) Frank Wilson Price «Sun Yat- Sen» Encyclopaedia of Social Sciences.

(4) قاد الجنرال شارل ديجول (-1890 1970م) حركة فرنسا الحرة على إثر استسلام فرنسا في الحرب العالمية الثانية وترأس الحكومة الفرنسية المؤقتة (1944 - 1964م) وأسس الجمهورية الخامسة سنة 1959م وتولى رئاستها حتى استقال سنة 1969م (المترجم).

خضوعهم المطلق لستالين والمكتب السياسي، من الوصول إلى مستوى القادة، ويقتصر دورهم على كونهم من المساعدين الأكفاء. ولكي تتجح الشيوعية حالياً في أي دولة غربية فلا بد من ظهور أحد نقيضين: إما أن تبرز شخصية ستالين وتتجسد على نحو يبلور الحركة، وإما أن يقطع الحزب الشيوعي المحلي صلاته بروسيا، كما فعل تيتو<sup>(1)</sup>، ويتحدى الرأسمالية والشيوعية معاً. لو كان لينين رئيس حزب شيوعي يعيش بعيداً عن روسيا لكان من المشكوك فيه أن يمارس تأثيره الحاسم على التطورات في روسيا.

## 91

إن الآراء الفجّة التي يصبر عنها عدد من قادة الحركات الجماهيرية والعصرية قد تدفع المرء إلى الاعتقاد بأن قدرًا من السذاجة ينفع القائد، إلا أن هذه الملاحظة غير صحيحة. لم تكن سذاجة هتلر أو أمي ميكفرسون<sup>(2)</sup> هي التي مكنتهما

---

(1) قاد المارشال جوزف بروز تيتو (-1892 1980م) حركة المقاومة اليوغسلافية ضد الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية وأسس الحزب الشيوعي وقاده، ثم نأى بنفسه عن موسكو واختط سياسة حيادية بين المعسكرين (المترجم).

(2) كانت أمي ميكفرسون (-1890 1944م) مبشرة أمريكية مثيرة للجدل، تمكنت من تحقيق ثروة طائلة وصيت ذائع واجتذبت جموعاً غفيرة من الأتباع المخلصين (المترجم).

من اجتذاب الأتباع؛ كان السبب الثقة المطلقة في النفس، هذه الثقة التي تمكن القائد من عرض أفكاره، مهما كانت مشوشة وسطحية، بكل جرأة واعتداد، ويمكن للقائد الحكيم الذي يتبع مسار حكمته إلى النهاية أن يحقق قدرًا مماثلًا من النجاح، ومن الأفكار، في حد ذاتها، لا تتعب سوى دور صغير في قيادة الحركة الجماهيرية، ما يهم هو المبادرات الجريئة والقدرة على تجاهل آراء الآخرين وعلى تحدي العالم بأسره.

إن شيئاً من الخداع أمر ضروري في تكوين القيادة الجماهيرية الفاعلة. لا يمكن أن تقوم حركة جماهيرية من غير تشويه متعمد، يغير الحقائق ويجعلها تجتذب الأتباع وتجعلهم متحمسين ومخلصين حتى الموت. يجب أن يكون القائد واقعياً وعملياً، ولكن يجب أن يتحدث بلغة المثالي صاحب الرؤية المثالية.

إن الابتكار ليس شرطاً ضرورياً لنجاح القائد. بل إننا نجد أن من الصفات القيادية القدرة على تقليد الأصدقاء والأعداء، على حد سواء، في الحاضر أو الماضي.

إن الجرأة المطلوبة للقيادة تتضح في الجرأة على التقليد بقدر ما تتضح في الجرأة على تحدي العالم. إننا نلاحظ في شخصية البطل قدرة غير محدودة على التقليد، وإصراراً على اتباع نموذج سابق. وهذا يدفعنا إلى أن نلاحظ أن الرغبة المفرطة في التقليد تدل على أن البطل لم يستطع تحقيق ذاته،

وأن في شخصيته الكثير من الجوانب السطحية المكبوتة. وعلى ذلك، فهو قادر على تحقيق ما يحققه بطمس نقاط الضعف كلها والتركيز على نقاط القوة.

## 92

إن التخلي التام عن الذات المستقلة شرط أساسي لتحقيق الوحدة والتضحية بالنفس، ولعله لا توجد طريقة تسهل هذا التخلي مثل غرس الطاعة العمياء في نفوس الأتباع. عندما يجبر ستالين العلماء والكتاب والفنانين على الزحف على بطونهم والتكر لذكائهم وإبداعهم وحسبهم الأخلاقي، فإنه لا يفعل ذلك إرضاءً لنزعة سادية، بل ليعزز الأهمية القصوى للطاعة العمياء ويكرسها. والحركات الجماهيرية كلها تعدّ الطاعة أهم السمات وتجعلها معادلة للإيمان: (إن اتحاد العقول لا يمكن أن يتحقق بمجرد الإيمان بعقيدة واحدة، بل لا بد من أن يكون الاستسلام للكنيسة والبابا في روما مساوياً للاستسلام لله)<sup>(1)</sup> ليست الأديان وحدها هي التي تتطلب الطاعة، بل إن الطاعة هي المبدأ الأول في كل حزب ثوري، وكل

(1) Leo X 111 , Sapientiae christianae.

ويرى لوثر في عدم الطاعة «خطيئة أكبر من القتل، والتهتك، والسرقه، والخيانة». Quoted by Jerome Frank, Fate and Freedom (New York: Simon and Sch 4 Ster, Inc, 1945, p. 281.

قومية متحمسة. (أطع - ولا تسأل عن السبب) - هو المبدأ الذي تعدّه الحركات الجماهيرية المثل الأعلى للسلك.

إنّ ما يواكب الحركات الجماهيرية من فوضى وسفك دماء ودمار قد يدفع المرء إلى الاعتقاد أن جميع أتباع الحركة، بطبيعتهم، من الأشرار المجرمين. غير أن القسوة الجماعية، في حقيقة الأمر، ليست بالضرورة دليلاً على قسوة فردية. إن الغضب الفردي يحول بين صاحبه وبين العمل الجماعي ويدفعه إلى تصرف فردي. مثل هذا الغضب ينتج المكتشف والمغامر ورجل العصاة، أما عضو الجماعة الجماهيرية فهو، أساساً، فرد مطيع خانع، حتى عندما تكون أفعاله عنيفة فوضوية. إن المتظاهر الشيوعي العنيف هو عضو مطيع مستسلم لإرادة الحزب. والعنف الياباني والنازي تم على يد أفراد ربّما كانوا الأكثر انضباطاً في تاريخ العالم. وفي الولايات المتحدة يجد ربّ العمل أن الرجل الجنوبي المتطرّف الذي ينزع إلى العنف يصبح في المصنع عاملاً مطيعاً وديعاً. وهذا الجنوبي نفسه عندما ينضم إلى الجيش يكون مستعداً تماماً للانضباط.

## 93

يبدو أن الأشخاص الذين يعيشون حياة فارغة تفتقر إلى الثقة بالنفس يبدون استعداداً للطاعة يفوق استعداد الأشخاص الذين يمتلكون الثقة بالنفس. إن التحرّر من المسؤولية، في نظر

المحبطين، أكثر جاذبية من التحرر من القيود. والمحبطون على استعداد للتخلي عن استقلالهم مقابل التخلص من أعباء الاختيار والقرار وتحمل نتائج الفشل المحتوم. يُسلم المحبطون بكل سهولة زمام حياتهم لرؤساء يقومون نيابة عنهم بالتخطيط وإصدار الأوامر وتحمل المسؤولية كاملة. وفوق ذلك، يبدو الخضوع التام لإرادة القائد الأعلى وسيلة لتحقيق المساواة التامة.

في الأزمات، خلال الفيضانات والزلازل والأوبئة والمجاعات والحروب، تنعدم جدوى الجهود الفردية ويصبح الناس، بجميع مستوياتهم، مستعدين لإطاعة القائد والسير خلفه، في هذه الظروف تصبح الطاعة القاعدة الصلبة الوحيدة في وجود من الفوضي.

## 94

إن المحبطين أكثر الناس قدرة مع أن يكونوا أتباعاً مخلصين. والملاحظ في الجهود الجماعية أن أقل الناس استقلالاً هو آخر من يزعجه احتمال الفشل. وسبب ذلك أن المحبطين يشاركون في عمل جماعي، لا ليضمنوا نجاح مشروع يهمهم، بل ليتجنبوا التعرض للوم إذا فشل المشروع. عندما يفشل مشروع جماعي يتفادى المحبطون الشيء الذي يخافونه أكثر من أي شيء آخر، وهو ما يكشف عيوبهم الفردية. يبقى

إيمانهم بعد الفشل كما كان قبله، وتبقى لديهم الرغبة في المحاولة من جديد.

يتبع المحبطون القائد، لا لأنه سيقودهم إلى الأرض الموعودة، بل لأنه يقودهم بعيداً عن أنفسهم التي يكرهونها. الاستسلام للقائد ليس وسيلة، ولكنه غاية في حد ذاته، أما الاتجاه الذي يسير فيه القائد فأمرٌ لا يهم كثيراً.

## 95

هناك، على ما يبدو، فارق أساسي بين قائد حركة جماهيرية وبين القائد في مجتمع حرّ. في المجتمعات التي تتمتع، على نحو أو آخر، بالحرية، لا يحتفظ القائد بولاء الناس، إلا عندما يكون لديه إيمان مطلق بحكمتهم وطيبتهم.

إن قائداً من الدرجة الثانية يملك هذا الإيمان سوف يكون أنجح من قائد من الدرجة الأولى يفتقر إليه. وما يعنيه هذا هو أن القائد في المجتمع الحرّ يتبع الناس، حتى وهو يقودهم. عليه كما قال البعض، أن يعرف اتجاه الناس؛ لكي يستطيع أن يقودهم في هذا الاتجاه. أما عندما يحتقر القائد في المجتمع الحرّ الناس، فإنه يبدأ التصرف كما لو كان كل الناس حمقى، وسرعان ما ينتهي بالهزيمة. إلا أن الأمور تختلف عندما يكون بوسع القائد استخدام القمع العنيف: يستطيع قائد الحركة

الجماهيرية فرض الطاعة العمياء فرضاً، والتصرف على أساس أن كل الناس جنباء، وهذا افتراض صحيح في هذه الحالة.

من أسباب فشل القادة الشيوعيين في التنظيمات النقيية الغربية أنهم يتبعون تعليمات الحزب الشيوعي حرفياً، ويتصرفون وكأنهم قادة حركة جماهيرية، بينما هم في الواقع، أعضاء في منظمات تضم رجالاً أحراراً.

## العمل

### 96

إن الانغماس في العمل عامل توحيد. والتميز الفردي الذي يوجد بين ممارسي العمل الفعلي، عامل البناء، والجندي، والرياضي، وحتى العالم، أقل بكثير من التميز الموجود لدى الأشخاص الذين ينبع إبداعهم من تواصلهم مع أنفسهم. لا يصبح المرء جاهزاً للعمل إلا عندما يتخلص من فرديته وتمييزه الذاتي. وهكذا نرى أن النشطين المنهمكين في العمل ينزعون إلى اتباع أنماط موحدة من السلوك. من المشكوك فيه، لولا الجهود الخارقة التي يتطلبها غزو قارة بأكملها، أن يتمكن الأمريكيون، وهم أمة من المهاجرين، من تحقيق التجانس الاستثنائي الذي حققوه في مدة زمنية قصيرة. كل الذين قدموا إلى أمريكا ليعملوا، أي لجينوا أرباباً مادية، تأقلموا

مع الوطن الجديد بسهولة لم تكن متاحة لأولئك الذين قدموا لتحقيق أهداف مثالية سامية. شعر أفراد الفئة الأولى بتعاطف فوري مع الملايين الراكضين وراء الهدف نفسه، وأحسّوا أنهم أعضاء في أسرة واحدة. أدرك هؤلاء في وقت مبكر أنه لكي ينجحوا، فلا بدّ لهم من أن ينسجموا مع محيطهم، أن يفعلوا ما يفعله الآخرون، أن يتعلموا اللغة ويعرفوا قواعد اللعبة. وفوق هذا، فإن الاندفاع الجنوني الذي وجدوا أنفسهم في غماره حال بينهم وبين إظهار شخصياتهم الفردية المتميزة، حتى عندما كانوا راغبين في إظهارها، ولم يدع لديهم القدرة على مقاومة المحيط الجديد. ومن الناحية الأخرى، فإن أولئك الذين قدموا لتحقيق مثل عليا، تتعلق بالحرية أو العدالة أو المساواة، وجدوا البلاد بعيدة عن ممارسة القيم التي يؤمنون بها، وقادهم هذا إلى شعور بالتفوّق أبقاهم في معزل عن بيئتهم الجديدة.

## 97

يصعب أن يعمل رجال الفكر يدًا بيد، أما رجال العمل فتوجد بينهم رفقة كرفقة السلاح. إن العمل فريقًا واحدًا نادر بين المفكرين، بينما هو أمر ضروري عند رجال العمل. إن الصيحة لنذهب لنبن مدينة أو برجًا<sup>(1)</sup> هي، دومًا، نداء للعمل الجماعي.

(1) Genesis, 11. 4.

قد يكون قوميسار الصناعة الشيوعي أقرب إلى الصناعي الرأسمالي منه إلى المنظر الشيوعي. والرابطة الشيوعية الدولية الحقيقية هي رابطة بين عمال، لا بين منظرين.

## 98

كل الحركات الجماهيرية تعد العمل وسيلة للتوحيد. إن المعارك التي تثيرها الحركة الجماهيرية وتبحث عنها لا تقضي على أعداء الحركة فحسب، بل تعمل على تجريد أتباعها من تميزهم الذاتي، وتجعلهم أكثر قابلية للذوبان في المجموع. والمشاريع الكبرى، مثل تسوية الأراضي، وبناء المدن، والاكتشافات الجغرافية والصناعات الضخمة تقوم، إلى حد ما، بتحقيق هدف مماثل. حتى المشية العسكرية، فإمكانها أن تكون عنصر توحيد، وقد استغلت النازية إلى أبعد حد هذه الجزئية. في البداية كان روشننج يرى أن هذه الطواوير العسكرية التي لا نهاية لها مضيعة للوقت والجهد إلا أنه أدرك، فيما بعد، تأثيرها الخفي: (المشي في الطابور العسكري يتطلب التركيز التام، ويقتل التفكير، ويقضي على الفردية)<sup>(1)</sup>.

إن دعوة الحركة الجماهيرية إلى العمل تلقى استجابة متحمسة من المحبطين الذين يرون في العمل شفاءً لجميع

(1) Hermann Rauschnig, The Revolution of Nihilism (Chicago: Alliance Book Corporation, 1939), p. 48.

أمراضهم. ينسيهم العمل أنفسهم ويمنحهم شعوراً بالأهمية. إن الإحباط ينبع أساساً من العجز عن العمل، وأشدّ المحبطين توتراً هم أولئك الذين تؤهلهم مواهبهم وأمزجتهم لحياة من العمل بينما تجبرهم ظروفهم على الفراغ والصدأ. هذا وحده ما يفسّر لنا كيف أن أشخاصاً مثل لينين وتروتسكي وموسوليني وهتلر قضوا معظم سنواتهم يثرثرون في المقاهي والاجتماعات، ثم برزوا، بغتة، كأكفأ قادة جيلهم وأشجعهم.

## 99

ينظم الإيمان نفسية الفرد ويعدها للعمل. أن يشعر المرء أنه يمتلك الحقيقة الوحيدة المطلقة ولا يشك، قط، في صحتها؛ أن يشعر أنه محمى بقوة يمكن أن تكون الله، أو القدر، أو حتمية التاريخ؛ إنه يعتقد أن أعداءه تجسيد للشر ويجب سحقهم؛ أن يبتهج بإنكار الذات والانقطاع للواجب، هذه مؤهلات رائعة تحفّز على العمل القاسي الجاد في أي ميدان، لقد ثبت أن الذين يرددون المقطوعات الدينية، خلال عملهم، سواء كانوا جنوداً أو مكثفين أو رجال أعمال، أو حتى رياضيين، رجال صعبون شديدي المراس. ويمكن للحماسة القومية أو الثورية أن تحقق الهدف نفسه: أن تحوّل الرجال الكسالي التافهين إلى مقاتلين وعاملين نشطين. من هنا يمكن القول: إنه لا بد من ظهور حركة جماهيرية، من نوع ما؛ ليتمكن تطوير المجتمعات الجامدة المتخلفة.

إلا أن استعداد المؤمن الصادق لانتهاج حياة من العمل يمكن أن يفيد الحركة الجماهيرية، كما يمكن أن يكون خطراً عليها. قد تعجل الحركة بنهايتها عندما تفتح ميادين واسعة للعمل المحموم. قد يصبح العمل الناجح هدفاً في حد ذاته ويحوّل كل طاقات الفرد؛ لتصبّ في مجراه. عندها يتحوّل الإيمان والقضية المقدّسة من كونهما الهدف الأسمى إلى مجرد وقود للعمل. والمؤمن الصادق الذي ينجح في كل مساعيه ينجح في استعادة الثقة، ويستطيع أن يتعايش مع نفسه ومع الحاضر.

وعندما يصل الفرد إلى هذه المرحلة، ويكف عن اعتبار نسيان النفس وذوبانها في المجموع وتحريرها من الإرادة والاختيار والمسؤولية السبيل الوحيد للخلاص يصبح معتقداً أن خلاصه في العمل، وفي إثبات قيمته، وفي تأكيد هويته الفردية. حتى عندما يفشل العمل في تحقيق ذات المحبّط، فإنه ينجح في تبرير وجودها. وعندما يبقى المحبّط، على عقيدته فإنه يفعل ذلك لتغذية ثقته ومنح نجاحه الشرعية. وهكذا نرى أن طعم النجاح الفردي المستمر في العمل يؤثر سلباً على روح المجموع. والشعب الذي دأب على الانهماك في العمل سوف يكون، على الأرجح، أقل تطرفاً وأقلّ ثورية من غيره. إن ما نراه من ترابط اجتماعي ومن تسامح سياسي وديني لدى الشعوب الأنجلوسكسونية هو -إلى حدّ ما- نتيجة توفر الرغبة والمهارة

لدى أفراد الشعب، بالإضافة إلى وجود فرص عمل وفيرة. كان العمل هو البديل عن الحركات الجماهيرية.

وفي المقابل، فإن اختفاء فرص العمل نهائياً، سواء بسبب ركود حاد أو هزيمة عسكرية، سينتج إيجاباً عنيماً تكون نتيجته تهيئة الأرض، بحيث تجد الحركة الجماهيرية المناخ الملائم لرعايتها. كان الوضع المتفجر في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة الجمود الذي فرض قسراً على شعب، يعرف أنه مهياً تماماً للعمل. ثم جاء هتلر ومنح الألمان فرصاً للعمل الدائب المثير، ومنحهم حركة جماهيرية. لا غرو، بعد ذلك، أن اعتبروه المنقذ.

### الشك

## 100

رأينا، فيما سبق، كيف تتحوّل إفرزات العقل المحيط، المكوّنة أساساً من الخوف وسوء النية، إلى حافز يجعل من المحيطين مجموعاً واحداً متماسكاً. إن الشك واحد من هذه الإفرزات، ويمكن له، بدوره، أن يكون عامل توحيد.

إن إحساس المحيط بعيوبه ونواقصه يجعله يرى سوء النية واللؤم عند جميع البشر. واحتقار النفس، حتى عندما يكون خفياً، يجعلنا أكثر قدرة على اكتشاف عيوب الآخرين:

نحاول جهدنا أن نكتشف لدى الآخرين العيوب التي نعاني منها. وهكذا يصبح الجوع عندما يجتمع المحبطون في حركة جماهيرية مليئاً بالشك: هناك تلصص وتجسس ومراقبة دائمة وشعور حاد أن المرء تحت المراقبة. والمدهش، هنا، هو أن هذا الشك المرضي بين أفراد الجماعة لا يقود إلى الخلاف، بل إلى العمل الجماعي المنضبط. ينزع أتباع الحركة الذين يشعرون أنهم تحت مراقبة دائمة إلى إزالة الشكوك عنهم بالالتزام الكامل بتوجيهات الحركة والمسلك الذي تتطلبه. إن الانضباط المفروض قد يكون نتيجة الشكوك المتبادلة، وقد يكون نتيجة الإيمان المتحمس.

تعتمد الحركات الجماهيرية اعتماداً كبيراً على الشك بوصفه آلية من آليات السيطرة. كانت الحركة النازية تجعل أتباعها يشعرون أنهم عرضة للمراقبة طيلة الوقت، الأمر الذي قادهم إلى حالة دائمة من الخوف والشعور بالذنب.<sup>(1)</sup> يبدو أن القاعدة في الحركات الجماهيرية هي الحذر من جيران المرء وأصدقائه، وحتى أقاربه. بين الحين والحين، يتم اتهام أشخاص أبرياء عمداً، ويضحى بهم؛ لينطق الشك حياً في الصدور. تعمد الحركة لإبقاء حدة الشك إلى ربط أي معارضة في صفوفها بالعدو الذي يهددها من الخارج.

(1) Ibid, p. 40.

وهذا العدو/ الشيطان الذي لا يمكن لأي حركة الاستغناء عنه، حاضر دائماً وأبداً. إنه يتأمر من داخل صفوف الحركة، كما يتأمر من خارجها. صوته هو الذي يتكلم من خلال المعارضين. والمنحرفون عن الخط هم عملاؤه. وعندما يحدث أي خطأ داخل الحركة، فهو السبب. إن الشك واجب مقدس من واجبات المؤمن الصادق، الذي يجب عليه أن يظل على حذر، طيلة الوقت من المخربين والجواسيس والخونة.

## 101

إن الوحدة الجماعية ليست محصلة الحب الأخوي الذي يكنه الأتباع، بعضهم لبعض، إن ولاء المؤمن الصادق هو للمجموع، الكنيسة، أو الحزب، أو الوطن، وليس لزملائه أتباع الحركة. إن الولاء الحقيقي في العلاقة بين الأفراد لا يمكن أن يظهر إلا في مجتمع يتمتع بقدر من الحرية واستقلالية الأفراد. لا بد أن يكون النازي المتطرف أو الشيوعي المتطرف على استعداد للتضحية بالأقارب والأصدقاء؛ لكي يثبت ولاءه لقضيته المقدسة. تعدد الحركة الجماهيرية النشطة روابط الدم والصدقة الشخصية إضعافاً لترابط المجموع. ومن هنا، فإن الشك المتبادل بين الأتباع ليس أمراً متمشياً مع قوة المجموع فحسب، بل يوشك أن يكون شرطاً من شروط هذه القوة. يراقب الرجال الذين يعتنقون مبادئ صلبة، وينطوون

على مشاعر قوية، بعضهم بحذر، ويستمدون قوتهم من هذا الحذر؛ إن الشك المتبادل يخلق خوفاً متبادلاً، ويربط الأشخاص بسلسلة من حديد تمنع الفرار وتمنحهم القوة في لحظات الخوف<sup>(1)</sup>.

جزء من التضحية بالنفس التي تتطلبها الحركة الجماهيرية هو التضحية بالنوازع الأخلاقية التي تقيد طبيعتنا البشرية. إن حماستنا تستطيع صنع المستحيل، عندما تدعها الكراهية والقسوة والطموح والجشع واحتقار الآخرين والتمرد<sup>(2)</sup>.

### نتائج العمل الجماعي

## 102

إن التوحيد الكامل، سواء جاء نتيجة الاستسلام العفوي، أو الإقناع، أو القمع، أو الضرورة، أو العادة المتأصلة، أو مزيج من هذه العوامل، ينزع إلى تقوية الرغبات والاتجاهات التي تتحاز إلى الجماعة على حساب الفرد. سبق أن رأينا كيف تقوّي الوحدة النزعة إلى الكراهية، كما تقوّي القدرة على التقليد. إن الشخص الذي يتم صهره في المجموع أكثر قابلية

(1) Ernest Renan, Antichrist (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 381.

(2) Montaigne, Essays, Modern Library Edition (New York: Random House, 1946) p.3.

للتصديق والطاعة من الشخص الذي لا يزال يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي. صحيح أن قيادة الحركة تحرص على إبقاء الكراهية مشتعلة، وتشجع التقليد، والقابلية للتصديق وتشر الطاعة، إلا أنه من الصحيح، أيضاً، أن التوحيد، في حد ذاته، حتى عندما لا تتدخل الأعيب القيادة، يقوّي ردود الفعل التي تعمل في اتجاه الوحدة.

قد يبدو هذا، لأول وهلة، محيراً. سبق أن رأينا أن معظم عوامل التوحيد تنبع من الكراهية التي يحس بها المحيط تجاه نفسه التي لا يحبّها، ووجوده الذي لا يطيقه. إلا أن المؤمن الصادق الذي ينصهر كليّة في مجموع كليّ متماسك لا يصدق عليه وصف المحيط: لقد وجد هويّة جديدة وحياة جديدة. أصبح يعدّ نفسه واحداً من الصفوة المختارين، الذين تحميه قوى لا تقهر، حتى يحقق مصيره ويرث الأرض. وهذه العقلية الجديدة على النقيض تماماً من عقلية الشخص المحيط. إلا أن المؤمن الصادق برغم ذلك، يُبدي، على نحن متزايد، ردود الفعل التي تدل على صراع داخلي ونقص في الثقة.

ماذا يحدث للفرد الذي يتم صهره في المجموع؟

إن التوحيد عملية تعني اختزال شخصية الفرد لا تتميتها. لكي يتم دمج الفرد في المجموع لا بد من تحريره من تميزه الذاتي، وحرمانه من حرية الاختيار والأحكام المستقلة،

ولا بدّ من طمس الكثير من نزعاته واتجاهاته الطبيعية أو كسر شوكتها. كل هذه عوامل تتخرق في الشخصية المستقلة. أما العناصر الجديدة التي يضيفها الصهر، العقيدة، الأمل، الكرامة، الثقة، فهي عناصر سلبية في جوهرها. ما يشعر به المؤمن الصادق من رضا وبهجة لا ينبع من مخزون من القوة والحكمة، بل من شعوره بالتحرّر من الأعباء التي ترهق وجوده المستقل. (نحن الألمان سعداء جدًّا. نحن أحرار من الحرية)<sup>(1)</sup> يجيء إحساسه بالسعادة من كون نفسه لم تعد النفس القديمة والهجوم على شخصيته لا يؤثر فيه. وما لديه من قوة الاحتمال عندما يواجه عدوًّا لدودًا أو ظروفًا بالغة الصعوبة تفوق قوى الاحتمال عند الشخص المستقل. إلا أن هذه القوة تعتمد على الحبل السري الذي يربطه بالمجموع الكلي: ما دام يشعر في قرارة نفسه أنه جزء من هذا المجموع، وليس من أي شيء آخر، فإنه يظل خالدًا وصامدًا. وهكذا تتمحور كل طاقاته ومشاعره حول هذا الحبل السري. يصبح تطلعه إلى أقصى حد ممكن من الوحدة أقوى من الحنين الغامض، الذي يعمل في نفسية المحيط، إلى الإفلات من ذاته الفاشلة. لا يزال أمام المحيط خيار، فهو يستطيع أن يجد حياة جديدة، لا بأن يصبح جزءًا من كل فحسب، بل بتغيير بيئته والانغماس كلية في جهود

(1) من رسالة كتبها نازي شابه قبيل الحرب العالمية الثانية: انظر:

I. A. R. wylie, «the Quest of our Lives Reader's Digest, May,

1948, p. 2.

تستنفد طاقاته، أما الشخص الذي تم صهره في المجموع فلا يملك هذا الخيار. لا بد له أن يلتصق بشدة بالجماعة أو يسقط كورقة ذابلة من شجرة، وينتهي. من الصعب على القسيس الذي طرد من الكنيسة، أو الشيوعي الذي فصل من الحزب، أو الوطني المتهم بالخيانة، أن يجد راحة البال، وهو فرد مستقل. لا يمكنه الوقوف على رجله، ولهذا فلا بد له من تبني قضية جديدة والانضمام إلى مجموعة جديدة.

إن العضو الذي انصهر في الجماعة يظل، دائماً وأبداً، يعاني من شعور بعدم النضج وغياب الثقة في النفس.

## 103

من المثير أن نلاحظ كيف تؤكد الحركة الجماهيرية ما يحسّ به أتباعها من غياب الثقة في النفس. عندما تصنع الحركة العقيدة في منزلة تفوق منزلة المنطق، فإنها تشل حركة الذكاء الفردي. وبالإضافة إلى هذا، تعمل الحركة على جعل أتباعها معتمدين عليها مالياً عن طريق تركيز المال في يدها وإحداث نقص متعمد في ضروريات الحياة، فضلاً عن حشر الأتباع في مساكن جماعية مزدحمة وفرض العمل اليوم الشاق عليهم في المشاريع العامة. وما تفرضه الحركة من رقابة صادقة على الأدب والفن والموسيقى والعلم يمنع الأقلية المبدعة من القيام بأي نشاط إبداعي مستقل. والولاء الذي

يفرض فرضاً، للكنيسة، أو الحزب، أو الوطن، أو القائد، يعمل، بدوره، على إبقاء الشعور بالنقص حياً لدى العضو. يصبح كل عمل من أعمال الولاء شبيهاً بمكبس كهربائي في النفس، يحتاج، باستمرار، إلى تيار كهربائي من الخارج.

وهكذا تتم صياغة الأشخاص المنخرطين في الحركة الجماهيرية على نحو يجعلهم، دوماً، معدومي الشخصية، معتمدين على الآخرين، حتى عندما يحملون في داخلهم بذور شخصيات مستقلة. برغم أنهم يصبحون بمنأى عن الإحباط القديم والظلمات القديمة، إلا أنهم يبدون كل سمات الأفراد الذين يتوقون إلى طمس أنفسهم، والتخلص من وجود يروونه معيياً بلا أمل في الخلاص.

